الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة 08 ماي 1945 قالمة

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب عربي

الأستاذة: إيمان حراث

المستوى: سنة ثالثة ليسانس

تخصص: دراسات أدبية

الأفواج: (1+2+3)

المحاضرة الثالثة عشرة:

واقع الرواية المغاربية

تمهيد:

يعتبر فضاء المغرب العربي فضاء شاسعا، تكثر فيه الأحداث الجيو سياسة، والذي كان عبارة عن مستعمرات عرفت العديد من التقلبات؛ إذ ظهرت على إثر الاستعمار حركات تحررية، مع مطلع القرن العشرين فكانت حافزا لإيقاظ الوعي، ولفت الانتباه إلى وحدة الفضاء المغاربي، من أجل التضامن وإجلاء الاستعمار وتحقيق الاستقلال، فالمغرب العربي هو بلد له عمق تاريخي وإسلامي، إذ يكون مجموعة سياسية جهوية تتألف رسميا ابتداء من فبراير 1989م، من خمس دول ذات سيادة هي ليبيا وتونس والجزائر وموريتانيا والمغرب تقيم على امتداد طوله 4000 كم من الشرق إلى الغرب وفي مساحة تقدر بحوالي ستة ملايين كلم.

وعلى الرغم من التجزئة الإقليمية التي عهدها المغرب العربي، إلا أن التقارب اللغوي والديني، يظل عاملا مهما في تعزيز الروابط الأخوية المغاربية على السواء، إننا نلمس ذلك في مختلف التعبيرات الفنية والثقافية، ونلمسه في الأدب والشعر وكذلك في طريقة بناء البيوت، وطريقة السكن والزراعة والتبادل إلا أن لكل مغاربي، طريقته في الكتابة ولكن ذلك لا يؤثر أبدا على وحدة المرجعيات التي يستقي منها الأديب المغاربي تصوراته الوجدانية والفكرية، ووسائل التشخيص للذات وللعالم، وتتمثل هذه المرجعيات في أربع مستويات هي الدولة، الأمة أو الوطنية العروبة والإسلام. بالإضافة إلى المرجعية الأمازيغية التي أصبحت عاملا مهما للروائي المغاربي الأمازيغي، الذي يكتب وفق البيئة التي انحدر منها وعاش فيها، وذلك في تشخيص الشخصيات الروائية، والفضاء العام واختيار العداوين الروائية ... وغير ذلك من التمثيلات الخطابية في روايته الحداثية.

أولا- واقع الرواية المغاربية:

هذا التداخل في المرجعيات، يفتح الآفاق للمغاربي على الحرية، والتفتح على الآخر سواء كان عربيا أم غربيا، ولذلك تأثرت الرواية المغاربية بالرواية المشرقية والغربية على السواء، فانتقل الفن القصصي من الغرب عن طريق الترجمة إلى بلاد المشرق، وانتقل الأدب المشرقي، إلى المغرب عن طريق المجلات والصحافة، فكانت الروايات المادة الأساسية للنشر. حيث عرف الأدب المغاربي بداياته التحديثية الأولى منذ الاستقلالات في سبعينيات القرن العشرين؛ فكانت المواضيع الأدبية تدور حول قضايا الثورة والالتزام، فكانت القصة والشعر أسهل طريقة للتعبير عن ذلك؛ لأنها كانت تنشر في

الصحف، أما الرواية فشهدت نموا واسعا في ثمانينات القرن الماضي. لقت رواجا واسعا من حيث القراءة، والنقد فاتجهت هذه الرواية نحو تشخيص تمزقات الفرد واستعادة عالم الطفولة، والانشغال بتأمل الكتابة في ذاتها في حقبة اتسمت بتنامي الشعور بخيبة الأمل أمام انكسار المشاريع الكبرى للتغيير والثورة. مثلما اتجهت هذه الرواية برفض الواقعية الموروثة عن القرن التاسع عشر وتشييد أشكال جديدة مولدة وتجريبية، وذلك بعدما ظلت خلال الستينات والسبعينات حبيسة انشغالها بتصوير الصراعات الوطنية من منظور اجتماعي أطروحي أو نقدي إشكالي في الغالب الأعم.

وهكذا لقد شيد الخطاب المغاربي خصوصية تميزه عن باقي الخطابات العربية فكانت الرواية المغاربية هي الجنس الأدبي الوحيد القادر على تجسيد تلك الخصوصية وفيما يلي موجز لأهم ملامح تجارب الكتابة في الرواية المغاربية:

أ. **الرواية التجريبية في تونس:**

ظهر في تونس أول عمل روائي، على يد "صالح السنوسي" في روايته (الهيفاء وسراج الليل سنة 1906م)، ثم تلتها رواية (الساحرة التونسيةسنة 1910م) لـ "الصادق الرزوقي ثم "أحمد الدوعاجي" في (جولة بين حانات البحر الأبيض المتوسط سنة 1935م) ثم بدأت تظهر طلائع التجريب أو النزعة العصرية في الأدب - كما يعتقد عبد الحميد عقار– في تونس في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي حيث لقي رواجا واسعا لدى الأدباء والنقاد التونسيين، والمؤشرات التي تدل على ذلك حدة التمرد المعلن على الأشكال والقوالب القائمة، وما يكتنف الكتابة أحيانا في عموض مبالغ فيه يكاد يتحول إلى ما يشبه الاستيحاء السوريالي دون سياق مقبول وهذا ما يميز الرواية التونسية، في إعلان تجربيتها مبكرا.

غير أن للتجريب إرهاصات برزت إلى الوجود قبل هذه الفترة بكثير حيث تشير الدراسات إلى أن الجذور الأولى لنزعة التجريب في الكتابة الروائية تجدها ماثلة في كتابات الأديب "محمود المسعدي" التي أنجزها في نهاية الثلاثينيات وبداية الأربعينات من القرن الماضي ويمثلها نص حدث (أبي هريرة قال سنة 1940م)، و(مولد النسيان سنة 1945م)، وهما جديران بأن يمثلا الريادة لهذا المسعى الروائي البديل الباحث عن تجاوز النموذج التقليدي، في الكتابة الروائية من خلال تمثل أشكال التراث، وتوظيفها إبداعيا بعيدا عن المحاكاة.

فالتجربة الروائية للعملين السابقين جعلت من "المسعدي"، رائدا للتجريب في المغرب العربي حسب ما يراه الناقد التونسي "بوشوشة بن جمعة" إذ يقول حوإن كانت تجربة الأديب التونسي "محمود المسعدي"، تعد في الحقيقة نقطة انطلاق التجريب في الكتابة الروائية المغاربية، والعربية على حد سواء وذلك في روايته (حدث أبو هريرة قال) ثم تلتها بعد ذلك رواية (الإنسان صفر) لـ "عز الدين المدني" سنة 1968م.

ومع هذه المحاولات الفردية، التي تعتبر طفرة حداثية لتفجير الطاقة التجريبية؛ في تونس إبان السبعينيات وخلال الثمانينيات اتجهت الرواية التونسية نحو التجريب، وتفجير الأشكال التقليدية في الكتابة الروائية. وقد تبلور هذا النزوع التجريبي والحداثي، في سياق عودة الكتاب إلى الاهتمام بالبحث عن الذات، وإعادة بناء الهوية عبر محاورة الأنا والآخر، تراثا كان أو غربا. فظهرت عدة روايات تجريبية مثل (الرحيل إلى الزمن الدامي) لـ "مصطفى المدايني 1981م"، و(ن) ،1983م، و(أعمدة الجنون السبعة) لـ "هشام القروي 1985م" و(النفير والقيامة) لـ "فرج الحوار 1985م "، و(مراتيج) 1985م" و(تماس) 1995م، لـ "عروسية النالوتي"، و(توقيت البنكا) 1992م، لـ "محمد علي اليوسفي"، (والتاج والخنجر والجسد 1992م)، "وراضية والسرك 1998م" لـ "صلاح الدين بوجاه"، "والدراويش يعودون إلى المنفى 1992م"، و(القيامة الآن) 1994م، و(شبابيك منتصف الليل) 1996م لـ "إبراهيم الدرغوثي"، و(أرخبيل الرعب) 1994م، و(حفيف الروح) 2001م، لـ "ظافر ناجي"، (وفي انتظار الحياة) 1998م لـ "كمال الزغبابي". وغيرها من النصوص التي يغلب عليها طابع التجريب، في تعرية الذات وكشف المسكوت عنه واستحضار العجائبي.

ومع ذلك تبقى الرواية التونسية، كغيرها من الروايات المغاربية، من حيث التداخل الأجناسي. أما ما يميزها عن غيرها في اقتدائها بالرواية المشرقية والغربية، هو اتجاهها نحو مسائلة شكلها، وممارسة اللعبة السردية أمام القارئ مغرية إياه بالمشاركة في هذه اللعبة.

بالإضافة إلى الأعمال الروائية ذات الحقل التجريبي المرتبط بالمرجعية السياسية نجد رواية (سعادته.. السيد الوزير) لـ "حسين الواد 2011م"، تعتبر هذه الرواية تجسيدا لسيرة الفساد الحكومي. وهناك روايات تحمل جرأة ساردها وتصوير المجتمع التونسي بكل عيوبه ومآسيه، هي روايات "كمال الرياحي" "نوارس الذاكرة 199م"، و (سرق وجهي) 2001م وهي عبارة عن أعمال قصصية ورواية (المشرط 2002م)، فازت بجائزة الكومار الذهبي 2007م، لأفضل رواية تونسية و(عشيقات الندل)

2015م) و (الغوريلا 2011م) و(واحد صفر للقتيل 2018م) وصدر له مؤخرا رواية (البريتا يكسب دائما 2019م). إذ كانت رواياته تعمل على بث التشويق في روايات تجريبية متشظية، كأنها قصص مستقلة عن بعضها والقارئ هو الذي يجمع هذه الشذرات المتفرقة معتمدا على اللغة والموضوع الذي يوحد الرواية.

فالرواية التونسية بصفة عامة تبقى متفردة ومتميزة في الحقل المغاربي، ناهيك عن تأثرها بالروايات الغربية، أو المشرقية، أو حتى المغربية، في حد ذاتها، كما سنتحدث عن ذلك في رواية (الطلياني) التي تحصلت على جائزة البوكر 2015م لـ "شكري المبخوت" الذي تعتبر روايته امتدادا تناظريا يتناص مع الرواية المغربية، خاصة روايات عبد الله العروي".

ب. الرواية المغربية بين التأسيس والتجريب:

أما في المغرب فكانت البداية الأولى لظهور الرواية في مجلات وجرائد على شكل (الرواية المسلسلة) أو (رواية العدد)، وعلى سبيل المثال سوق الروايات التالية:

لصوص المقابر، نشرت من 18 فبراير الى 30 مارس 1914م.

روحي فداك، من فاتح أبريل الى 16 ماي 1914م.

وكانت تنشر بأسماء مستعارة كالأديب الحالم مثلا. وأغلب روايات هذا العدد ضاقت بالوصف المسهب لمشاهد الطبيعة وللمغامرات الفروسية، فإن هذه النصوص وضعت أمام كتابنا الخيط الأول للسرد الحديث الذي أضافوا له خيوطا، ومن منطلقه نسجوا ابتداء من العقد الأربعيني أول رداء للقصة القصيرة، بل ربما للرواية وتعتبر النقلة التحديثية في أدب المغرب كمسار انعطاف، أو نقطة تحول حددت تغيرات في الفن الروائي والسردي عموما، له علاقة بالسياق الاجتماعي والتاريخي لبلاد المغرب فكانت البدايات الأولى لفن الرواية في المغرب تعتمد في ذلك على تقسيم الفترة الفنية الى مرحلتين.

❖ **المرحلة التأسيسية**

وهناك من ربطها بالمرحلة الواقعية، وتمتد زمنيا من تاريخ صدور أول عمل قصصي في فترة الأربعينيات، فقد أبانت النصوص السردية الأولى، المنشورة بين 1940م و 1950م مشهد كتابة مفككة وساعية في الوقت نفسه نحو التماسك الفني؛ ولا ننكر بأن المحاولات الأولى في المغرب اتخذت طريق (المقالة)، وذلك لتحرر الكاتب من معوقات النثر وبدت وسيلة يعبر بها عن مشاعره وأحاسيسه، وشرع

فيها الأديب المغربي يتدرب على القص الفني فكانت الحقبة التي ذكرناها سابقا حقبة سجلت طموح الانتقال إلى التحديث الأدبي واكتست أهمية في صوغ نموذج الأدب السردي بمحصلة الرؤية الواقعية المحمولة فيه.

ولعل من الأسباب والممهدات لظهور الكتابة في هذه المرحلة هو دعوة الأدباء في مختلف إبداعاتهم إلى القطيعة مع التراث الثقافي في مرحلة الاستعمار؛ فمن خمسينيات القرن المنصرم ارتفعت أصوات وظهرت كتابات وإبداعات تؤشر على ما يشبه القطيعة مع التوجهات الثقافية، والإبداعية التي ازدهرت في مرحلة مقاومة الاستعمار، والكبت على إحياء التراث وقيم الهوية الوطنية وروح الممانعة.

فعلى الرغم من الظهور المبكر للكتابة في المغرب مقارنة بنظيراتها المغاربية الأخرى (تونس ليبيا والجزائر) إلا أنها تبقى متأخرة بالنسبة لبلاد المشرق، ويرجع بعض الباحثين تعثر عملية تطوير الكتابة الروائية المغاربية في تلك الفترة المبكرة إلى العوامل التي صاحبت مرحلة مطلع الاستقلال المغربي المتأثرة بمخلفات الاستعمار.

ومن جهة انشلال الثقافة في أهم حقولها على إثر المشكلات التي عصفت بكامل المغرب ومن بينها المسألة البربرية والأزمة الاقتصادية، وابتلاع الإدارة لكل الأدباء والمبدعين، في مرحلة أصبحت فيها مهنة الكتابة ضربا من الترف، في بلد هو في أشد الحاجة إلى اقتناء أسس الثقافة الصحيحة، التي تضع حدا لتسلط الجهل والأمية من جهة أخرى.

إن تأخر ظهور الرواية العربية عموما، مغاربية كانت أو مشرقية، أمر طبيعي يجد تبريره في تخلف الشروط التاريخية الملائمة، ويؤكده الغياب الفعلي للرواية في التراث القومي رغم ما يذهب إليه البعض، من توافره على أشكال ما قبل روائية. لهذا كان طبيعيا أن تتصف أعلب أعمال هذه المرحلة بما أسماه أحد النقاد بـ (الاذقاع الفني.. والمحاكاة الحرفية لبعض النماذج المشرقية المتجاوزة). كما هو الحال بالنسبة (الأمطار الرحمة) لـ "عبد الرحمن المريني"، و(غدا تتبدل الأرض) لـ "فاطمة الراوي"، و (بوتقة الحياة) لـ "البكري السباعي" و(إنها الحياة) لـ "محمد البوعناني".

وهو الأمر الذي جعل الرواية المغربية تشكو من ضعف فادح، في المضامين والأشكال وقد اقتصرت مضامين روايات هذه المرحلة بشكل عام على:

- **امتزاج الروائي بالسير ذاتي:** فكانت البدايات الفعلية لكل أديب هي السيرة الذاتية وبعدها يبدأ الأديب، بالتفاعل مع الأشكال الأخرى كرواية (في الطفولة) 1956م لـ "بن جلون" وغيرها.

❖ **حضور الآخر.**

❖ **اعتماد قواعد الكتابة الكلاسيكية.**

وهذه الملابسات من شأنها أن تبحث عن أسباب اشتمال تلك الكتابة السردية، على خصائص شكلية ومضمونية تربطها بالواقع المغاربي، إلا أنها تخلط في التعبير عنه بين الروائي والسير ذاتي، ويتداخل فيها الذاتي بالموضوعي والخاص بالعام بشكل غير متوازن.

من هنا يمكن القول إن الكاتب في هذه المرحلة حذا حلو الآخر الغربي، في اقتناء مادته على الواقع المغاربي، وهو نفس ما ذهب اليه "عبد السلام الحيمر" في كتابه (النخبة المغربية وإشكالية التحديث) حيث قال عندما كانت النخبة المغربية، تفكر في أزمات المجتمع المغربي وانحطاطه محاولة إيجاد حلول لها كانت تفكر في أزمات المجتمع المغربي، وانحطاطه محاولة إيجاد حلول لها، كانت تفكر تحت سلطة مرجعية مزدوجة أحدهما للنموذج سلفي تقليدي (...) والآخر للنموذج سلفي أوروبي غربي، اقتنعت النخبة المغربية من خلال هزائمها المتكررة، على يده ومشاهداتها لمظاهر قوته، أنه جدير بالاقتداء فأصبح نموذجا، تقيس عليه مشاكل ومشاغل حاضر دولتنا ومجتمعه.

من هنا يمكننا القول والاعتراف بأن الكتابة الروائية، في هذه المرحلة مرتبطة أشد الارتباط بالواقع المغاربي ومن منظور ابستمولوجي، فإننا نتصور الواقعية في هذا الإطار باعتبارها اختراقا لضوابط احتفظ بها طويلا، وترسخت رسوخا شديدا حارسة التقاليد بعين لا تنام وداعمة لقيم ماض آيل إلى الزوال.

ومن هذا المنظور تشتمل الرؤية الواقعية، على العلاقة بين النص الأدبي، ومحيطه الاجتماعي – السياسي، فكان باعثا للإنتاج الروائي المغاربي، ومن المكونات والخصائص التي تتميز بها هذه المرحلة أن الواقعية تشتغل هنا بصيغ التقنية السردية والطرائق الأسلوبية، وبتأثير الإبداعية الفردية للكتاب. معنى ذلك أن الرؤية (الرؤى) الواقعية لا تستطيع كما لا ينبغي لها أن تقف عند حدود وحدة التيمة (التي تشمل المضمون أيضا) ولا في الإطار المرجعي خارج النص (ميدان النثر الاجتماعي والخطاب الايديولوجي) بل تصاغ بالتجسيد النصي المتلفظ لهذه العناصر مخصصا طبيعة الرؤية أي واقعية الكتابة.

المرجع المعتمدة:

1. عبد الحميد عقار، تحولات اللغة والخطاب

2. بوشوشة بن جمعة ، اتجاهات الرواية في المغرب العربي، المغاربة للطباعة والنشر، تونس ط1 1999م

3. سامية حامدي، التجريب السردي مقاربات في الروايات المغاربية

4. أحمد المديني، الكتابة السردية في الأدب المغربي الحديث، التكوين والرؤية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 2000م

5. محمد برادة، الرواية العربية ورهان التجديد، دار الصدى للطباعة والنشر، دبي، ط1، 2001م

6. عبد السلام الحيمر، الخبة المغربية وإشكالية التحديث، مطبعة النجاح الجديدةن الدار البيضاء، 2001م